سيشنان اليوم، السبت، في الساعة السادسة مساء، هجوما مشتركا على اسرائيل (رحتى هذا الخبر لم يكن دقيقا للغاية، اذ ان الحرب بدأت، كما هو معروف، الساعة ١,٥٥ ظهرا). وعلى الفور، دعا العازار الى اجتماع لهيئة الأركان في الساعة ٥,١٥ صباحا، واتصل بالجنرال بيليد، قائد سلاح الطيران، وأبلغه بضرورة الاستعداد لتوجيه ضربة جوية وقائية ضد مصر وسوريا، يتم تنفيذها ظهر ذلك اليوم. ثم اتصل بدايان طالبا دعوة الاحتياط، الا ان الأخير لم يستجب للطلب، مبديا استعداده للموافقة على تجنيد ٢٠ الى ٣٠ الفاً فقط، من أطقم الدبابات دون غيرهم (الجزء ٢ ص١٣ – ١٥). وفي الثامنة، عقد اجتماع مع غولدا مئير، رئيسة الحكومة، تقرر فيه ان لا تكون اسرائيل البادئة بالهجوم. ولذلك أُلغيت فكرة القيام بضربة جوية وقائية. كما صدرت، بعد تردد، التعليمات بدعوة الاحتياط الى الخدمة. وحتى مساء ذلك اليوم، تم تجنيد نحو ١٥٠ الفا (٢/٢٢ و٢٤ و٤١). ويبدو أن الزعماء الاسرائيليين تصرفوا على هذا النحو، تحت تأثير سيطرة «المفهوم» اياه عليهم، واعتقاداً منهم، حتى تلك اللحظة، بأن الحرب قد لا تقع فعلاً، وبالتالي فإن تلك الاستعدادات واجبتها، ان اتضح انها كانت في غير محلها، قد تثير ذعرا يمكن أن ينعكس سلبا على المزاج العمالي الحاكم في الانتخابات القريبة. اذ انه حتى بعد وصول «النبأ الموثوق» ابدى رئيس الاستخبارات زعيرا، رأيه في أن السادات قد يغير موقفه في اللحظة الأخيرة، ولن تكون هنالك حرب. اما دايان، فقد تساءل عن موعد تسريح قوات الاحتياط التي استدعيت للخدمة. اذا لم ينشب القتال (٢/١٠ – ١١ و٣٠).

غير أن هذه الثقة بالنفس سرعان ما اختفت، بعد ان اتضحت النتائج الأولية لليوم الأول من القتال. وفي اليوم الثاني للحرب، اتضح للقيادة العسكرية الاسرائيلية ان المصريين استطاعوا، أثر الهجوم الأول الذي شنوه، بعد عبورهم القناة، والذي بدأ في الخامسة من صباح اليوم التالي، طرد القوات الاسرائيلية مسافة ١٥كم من القناة (وفي بعض الاماكن ١٦ كم). بينما فشلت القوة الاسرائيلية التي كلفت بصدهم، واضطرت الى الانسحاب بعد فقدانها ثلثي دباباتها (٢/٥٥ و٥٦ و٥٩). أما على الجبهة الشمالية، فقد هاجم السوريون بقوات ضخمة، ولم تكن لدى الاسرائيليين الاعداد الكافية من الدبابات للتعامل معها، فاضطروا الى استعمال الطيران بكثافة، وفقدوا نتيجة لذلك ٢٠ طائرة خلال اليوم الأول (٢/٥٠ و٦٠ و٦٨).

وقد وقعت هذه الانباء كالصاعقة على دايان، الذي بدا متشائما، ويكاد ينهار، حين سمعه أحد الجنرالات يقول: «لقد خسرنا المملكة الثالثة» (٢/٦٣ و٦٤)، ثم نصح بعدم محاولة العودة الى ضفة القناة ثانية، لئلا تدمر دبابات أخرى، ينبغي المحافظة عليها للدفاع عن اسرائيل نفسها، فيما اذا وصل المصريون الى حدودها (وقد تقرر فعلاً عدم محاولة العودة الى حدود المياه). أما غولدا مئير فقد صرحت انه إذا كان ما قاله دايان صحيحا، فانها لا ترى طعما لاستمرار بقائها على قيد الحياة (٢/٦٧). وقد تمكّن هذا التشاؤم من دايان في الأيام القادمة، فراح يطالب بتسليح السكان في اسرائيل بالاسلحة المضادة للدروع، لمقاومة الدبابات العربية، فيما إذا اخترقت خطوط الدفاع، ووصلت الى داخل اسرائيل (٢/١١٤ – ١١٦ و١٢٥). وفي اليوم الرابع من القتال، توقف دايان عن المشاركة فعليا في ادارة المعارك، واكتفى بتقديم «نصائح وزارية» لرئاسة الأركان، التي لم تأخذ بها، عموما. ثم عرض مرتين على مئير تقديم استقالته لكن رئيسة الحكومة رفضت ذلك (٢/١٥٣ و١٨٨ و١٩٢).

ومع «تحييد» دايان لنفسه، انتقلت إدارة الحرب عمليا الى العازار. وكان أول قرار «استراتيجي» اتخذه، بعد أن فوجىء بالحرب، ودون أن تكون تحت إمرته قوات كافية لشن حرب شاملة على جبهتين في الوقت نفسه، هو اعطاء الأولوية للقتال على الجبهة الشمالية، وترك الجبهة الجنوبية، على الحدود المصرية، تدبر أمورها بنفسها، حتى تستكمل دعوة قوات الاحتياط، وتكون هنالك قوات كافية للقتال على الجبهتين معا. ولذلك، كان أول أمر عملياتي أصدره العازار، بعد انتقاله الى مقر قيادة الحرب، الواقع تحت الأرض في احدى ضواحي تل – أبيب، بعيدا عن مبنى رئاسة الأركان، هو اعطاء الأفضلية للقوات المتجهة نحو الشمال، الى الجولان. وقبل ان يتضح الوضع على أي من الجبهتين، أمر فرقة الدبابات التابعة للمنطقة الوسطى، والمنتشرة عادة قبالة الجيش الاردني، بالاتجاه نحو الشمال ايضا، لدعم القوات الموجودة هناك.